فنحن نراه هنا يفتخر بالغلبة والسّطوة ، ويزعم أن من يقتل من قبيلته فإن دمه يسيل بعطرٍ كأنه المسك ، فقد كان الجاهليّون يعتقدون أن دم الملوك طيّب الرّائحة . ويفخر بأجداده الذين وُلد من أصلابهم ملوكُ الحيرة ، ويقول إنهم يعترفون بالسّيادة لذوي المروءة منهم وإن كانوا فقراء ، ثم يصف قومه بالكرم وقِرَى الضّيف وبشدة السّطوة والبأس ، وهذه هي جِماعُ القيم والمُثل الجاهليّة. أما في ظلّ الإسلام فقد اتّخذ فخرُه نهجاً آخر مختلِفاً عن ذلك إذ يقول [١] :

كُنّا مُلوكَ النّاس قَبْلَ مُحَمَّدٍ ... فَلمّا أتى الإسلامُ كانَ لنا الفَضْلُ
وَأكْرَمَنَا اللّهُ الذي لَيْسَ غَيْرَهُ ... إلَهٌ بأيّام مَضَتْ ما لَها شَكْلُ
بِنَصْرِ الإلَهِ والرّسُولِ ودِينِهِ ... وألْبَسَنَاهُ اسْماً مَضَى ما لَهُ مِثْلُ
أولَئِكَ قَوْمِي خَيْرُ قَوْمٍ بأسْرِهِمْ ... فما عُدَّ من خَيْرٍ فَقَوْمِي لَهُ أهْلُ
يَرُبُّونَ بالمعروفِ مَعْرُوفَ مَنْ مَضَى ... ولَيْسَ عَلَيْهِمْ دُونَ مَعْرُوفِهِمْ قُفْلُ
إذا اخْتَبِطُوا لم يُفْحِشُوا في نَدِيِّهِمْ ... ولَيْسَ على سُؤّالِهِمْ عِنْدَهُمْ بُخْلُ
و إنْ حارَبُوا أو سالَمُوا لم يُشَبِّهُوا ... فَحَرْبُهُمُ حَتْفٌ وَسَلْمُهُمْ سَهْلُ
وجارُهُمُ مُوفٍ بعَلْيَاءِ بَيْتِهِ ... له ما نَوَى فينا : الكَرَامَةُ وَالبَذْلُ
وحامِلُهُمْ مُوفٍ بكُلِّ حَمَالَةٍ ... تَحَمَّلَ لا غُرْمٌ عَلَيْهَا ولا خَذْلُ
وقائِلُهُمْ بالحَقِّ إن قالَ قائِلٌ ... وحِلْمُهُمُ عَوْدٌ و حُكْمُهُمُ عَدْلُ
ومنا أمِينُ المُسْلِمينَ حَيَاتَهُ ... ومَنْ غَسَّلَتْهُ من جَنَابَتِهِ الرُّسْلُ [٢]

فنحن نرى كيف تغيّرت المثل والقيم في فخر حسّان الإسلاميّ ، وإن كان قد بقي من قيم الجاهليّة ما استبقاه الإسلام ، فهو يمدح قومه بالسّبق

(١) ديوان حسان ، ص ١٤١ .

(٢) ما لها شكل : ما لها مثل ؛ يربون : يصلحون ؛ واختبطوا : قصدوا في مجلسهم ؛ والعَلْياء : الموضع المرتفع؛ والحمالة : ما يتحمله الرجل من غُرْم في الدّيّة ؛ والحلم العود : القديم المتكرر ؛ والإشارة في البيت الأخير بقوله : أمين المسلمين ، إلى سعد بن مُعاذ الأوْسي ، وبمن غسّلته الرُّسل ويعني الملائكة : حَنْظَلة بن أبي عامر الذي استشهد في أحد وهو على جَنابَةٍ فغسّلته الملائكة .